الفصل الثالث

استدعاء الرموز المكانية وتوظيفها في إبداع الشياب الشعري

الفصل الثالث

استدعاء الرموز المكانية وتوظيفها في إبداع الشياب الشعري

الأمكنة التراثية

يعد المكان أحد أبعاد النص الشعري، ويشكل أهمية بالغة في الأدب لأن" العمل الأدبي حين يفتقد المكانية فهو يفتقد خصوصيته وبالتالي أصالته"[1] وقد اهتم الشعراء بالأمكنة التراثية قديما ويتجلى اهتمامهم به من خلال الوقوف على الأطلال في الشعر الجاهلي، وقد كان وقوف الشعراء على هذه الأمكنة التراثية لدافع نفسي وعاطفي..وبعد أن ازدهرت الحضارة الإنسانية، وتقدم عالم البشرية ظل ارتباط الشاعر وثيقا بالتراث المكاني، وكذلك المدن الحديثة؛ فقد تغنى الشعراء بجمالها واوصافها، كما وقف الشعراء على أبعادها الدينية والسياسية والاجتماعية..الخ، واستباط البعد الحضاري من خلال تاريخها العريق، ومن هنا جاء توظيف الرمز المكاني مشعا بالايحاء على اختلاف مجالات توظيفه في النص الشعري.

وفي الشعر العربي الحديث جاء توظيف الأمكنة التراثية القديمة، والتي تركت بصمات واضحة في التاريخ الحضاري والإنساني عاد إليها ليصب الشاعر فيها جل معاناته السياسية والاجتماعية..عاد إليها" عبر الأزمنة السحيقة، وكل ما يود ايصاله للآخرين هو تكثييف لما هو خفي وسري"[2].

وقد استحضر السياب في نصوصه الشعرية عددا من الأمكنة التراثية ذات الرمز والدلالة، والتي تشكل بنية في بناء قصائده، خاصة المدن القديمة مثل سدوم وعامورة وارم ذات العماد...وكذلك مدن أوروبية حديثة تعرف السياب عليها خلال رحلاته بحثا عن الشفاء.

- **بغداد**

يرى الدكتور عز الدين اسماعيل أن بغداد مثلت تجربة سياسية فريدة في حدتها وتعقيدها لم تمثله مدينة عربية أخرى، وقد انعكست آثارها في الشعر العراقي خاصة، وربما يعود ذلك إلى عدد غير قليل من شعراء العراق كان طرفا في الصراعات السياسية فتمثل وجه المدينة بالنسبة لديهم وجه الأمة الحضاري

---

(1) جاستون باشلار، جماليات المكان، ترجمة غالب هلسا، دار الجاحظ للنشر والتوزيع، وزارة الثقافة والاعلام، بغداد، ص 6.

(2) جاستون باشلار، جماليات المكان ، سابق، ص 50.

والسياسي"[1] والسياب عاش في مرحلة صراع مع السلطة الحاكمة فقد نُفي وشرد من جراء ذلك فجاء البعد السياسي لهذه المدينة" مسرحا للصراع ووعاء له"[2] وقد ميزت (المعاناة) حياة المدينة العربية وخاصة بغداد في مرحلة صراع سياسي واجتماعي وكان الناس في بغداد ينتظرون فجر الخلاص والثورة الشاملة التي تمدهم بالنور والحرية، لكنها كانت مرحلة أشبه ما تكون بالمخاض فلا ولادة كاملة ولا ثورة قائمة لذلك تأتي صورة الشاعر محبطة باليأس، والحياة قد استحالت في بغداد إلى موت عقيم، وقد صلبت المدينة /بغداد، وليس هناك من ينقذ الشاعر، والموت يزحف إليه ويعاني آلام المخاض دون ولادة.

نزع و لا موت
نطق و لا صوت
طلق و لا ميلاد
من يصلب الشاعر في بغداد[3]

ويرى السياب في بغداد/العراق من خلال بغداد أو يرى العراق ولعل الحركات السياسية في العراق كانت تنطلق من بغداد، لذلك فبغداد في الشعر هي العراق وفي شعر السياب هي العراق الواقع والرمز"[4]

وقد جاء المقطع المقطع السابق في صورة قلق بالنسبة للشاعر القروي فهي سجن كبير يعكس القرية التي تعني له الحرية والأمل والبراءة، ومن هنا جاء هذا المقطع بصورة قلقة" وتأتي زمانية المقطع بالفعل "يصلب" تأكيدا على احباط الشاعر في المدينة وتوقا مؤجلا إلى الحرية"[5].

وتبدو صورة بغداد بمبغى كبير، أو كابوس وذلك بإطار سافر مؤلم، حيث يشبهها بامرأة يرتادها العابرون؛ فهي دار في كل الدور وهي الخمر والراقصات..زفهي إذن عامورة القائمة من الرقاد، ويكشف توظيف السياب بهذه الصورة عن السياسية الفاشلة التي تمارسها بغداد إذ يرتادها المستعمرون[6] فهي بذلك بعيدة عن أبنائها وكأنها جثة هامدة مستباحة للدود وكابوس يطبق عليها، وهذا ما يثير الضيق والظلمة والاحباط واليأس؛ فالعيش في بغداد أصبح موتا وعبودية وكابوسا.

بغداد مبغى كبير
لاحظ المغنّية

---

(1) عزالدين اسماعيل، الشعر العربي المعاصر، سابق، ص 347.
(2) عزالدين اسماعيل، الشعر العربي المعاصر، سابق، ص 348.
(3) السياب، الأعمال الشعرية الكاملة، ص 230.
(4) ياسين النصير، جماليات المكان في شعر السياب، سابق، ص 140.
(5) ياسين النصير، جماليات المكان في شعر السياب، سابق، ص 141.
(6) ياسين النصير، جماليات المكان في شعر السياب، سابق، ص163.

كساعة تتكّ في الجدار
في غرفة الجلوس في محطّة القطار
يا جثة على الثرى مستلقية
الدود فيها موجة من اللهيب و الحرير[1]

وهذا ما يعكس طبيعة العلاقة التي تربط الشاعر ببغداد بأنها مدينة الخطاة / مدينة الحبال والدماء والخمور، مدينة الرصاص والصخور" وقد أحس السياب بثقل الزمن في بغداد؛ فالساعة فيها تبدو يوما كاملا، واليوم يحسه عاما يرجعه السياب لكثرة الجراح التي لاحقت الضمير:

بغداد كابوس (ردى فاسد
يجرعه الراقد
ساعاته الأيام أيامه الأعوام و العام نير
العام جرح ناغر في الضمير) [2]

ويتخذ السياب من بغداد بعدا سياسيا ممتد من البعد الوجداني والاجتماعي..فبغداد بالنسبة للشاعر رمزا للاستبداد والقسوة، حيث يرتع الأقوياء والدساسون ويملق الضعفاء والأبرياء والصادقون، لهذا فإن صورة بغداد صورة مبغى كبير تبرز منه غرائز الوحشية الشرسة[3]." بغداد مبغى كبير..الدود فيه موجه..بغداد كابوس..ساعاته الأيام...أيامه الأعوام.."وإذا كانت هذه المعاني تتخذ من شكل الهجاء الاجتماعي تعبيرا عن وطأة المجتمع على الفرد وشعوره بالهلاك وليس للشعور بالقهر، فثمة باعث وجداني وسياسي أيضا. [4]

و نحن في بغداد من طين
يعجنه الخزّاف تمثالا
دنيا كأحلام المجانين
و نحن ألوان على لجها المرتجّ أشلاء و أوصالا [5]

فهذه الطينة هي طينة العبودية يتصرف بها الظالمون على هواهم، يقيمون منها دمى يعبثون بها، والحاكم هو ذلك الخزاف الماجن السادي الذي يلهو بمصائر قوم لا حول ولا قوة لهم وهذا ما يشير إلى محنة الـ"نحن" الشعب في بغداد قبل ثورة تموز 1958م. وتتماثل في ذهن الشاعر بغداد وعامورة مدينة الفسق والفجور والانحطاط الاخلاقي والاجتماعي في التاريخ، فيسأل:

---

(1) السياب، الأعمال الشعرية الكاملة، ص242.
(2) السياب، الأعمال الشعرية الكاملة، ص242.
(3) محمد العبد محمود، الحداثة في الشعر العربي المعاصر، بنياتها ومظاهرها،العالمية للكتاب،ط1،1996ص 296.
(4) محمد العبد محمود، الحداثة في الشعر العربي المعاصر، ص 276.
(5) السياب، الأعمال الشعرية الكاملة، ص243.

أهذه بغداد
أم أن عامورة
عادت فكان المعاد
موتا و لكنني في رنّة الأصفاد
أحسست ماذا صوت ناعورة
أم صيحة النّسغ الذي في الجذور[1]

ويعمد السياب إلى رمزي سدوم وعامورة ليفد منهما في دلالات الشهوة العارمة والشبق الجنسي الذي يؤدي بحضارة الإنسان إلى الدمار والهلاك حين تكون الرغبات شاذة وتبعث على الاشمئزاز متخذا من نقل دلالاتها القديمة إلى واقع اليوم، مما يجعلها تحمل موقفا معاصرا رافضا كل قيم مثل هذه المدن وبغداد أولها[2] فقد كان المعاد لبغداد موتا وسجنا وأصفادا وعامورة بغداد لا تحيا إلا بالدم، والسياب يوازن بين ما أصابه وما أصاب زوجة لوط من جراء فساد عامورة/بغداد، فزوجة لوط قد اصبحت عامود ملح، والسياب الذي أصبح غير قادرعلى تحريك أصابعه" أحرك الأصابع لا تطيعني..مشلولة..."

ويسقط دلالات تحول زوجة لوط إلى عمود ملح، فحاله أيضا عامود ملح يسير ويدل ذلك على ما يعانيه من مرض المدن اللعينة (سدوم/عامورة) رامزا بجيكور إلى بغداد تقية وتخلصا مما يجره عليه التصريح من اشكالات[3]

كيف أمشي خطاي مزقها الداء كأني عمود
ملح يسير
أهي عامورة الغوية أو سادوم

(1) السياب، الأعمال الشعرية الكاملة، ص243.
(2) علي عبد الرضا، الأسطورة في شعر السياب، ص 62.
(3) علي عبد الرضا، الأسطورة في شعر السياب، ص 63.

هيهات إنها جيكور[1]

هذه صورة بغداد التي جاء بها الشاعر محملة بالرؤية السياسية والاجتماعية والاخلاقية، وقد جاء الرمز المكاني التراثي محملا بالسياسة أيضا وبما يحس به الشاعر حسب رؤيته للعصر؛ فقد صب جل معاناته على بغداد/ الحاكم؛ فالشاعر لا يقصد بغداد لذاتها من الموقع المكاني وإنما رمز للبعد السياسي وما تمارسه السلطة في بغداد في ذلك الوقت..فالشاعر ليس على عداء مع مدينته من حيث هي مكان، بل من حيث الممارسة السياسية التي تصدر من بغداد، وهكذا جاء الرمز المكاني التراثي وعاء للشاعر ليبث فيه معاناته التي يشعر بها.

- **بابل**

بابل عاصمة البابليين أصحاب الحضارة الزراعية المتقدمة[2] وعلى الرغم من الجوانب المضيئة التي تحلت بها بابل إلا أن السياب لم يشر إلى ذلك لأنه أراد أن يتحدث عن الصورة القاتمة التي تحيط بالمدينة وببغداد أو تبدو صورة بابل صورة قاتمة سوداوية ويزيدها سوادا أن جنائنها المعلقة التي كانت فيها في الماضي منجزا حضاريا..وإنما بعثت في العصر الحديث من رؤوس أهلها المقطعة، وهذه أبشع صورة لبابل:

كأن بابل القديمة المسوّرة
تعود من جديد
قبابها الطوال من حديد
يدق فيها جرس كأنّ مقبرة
تئن فيه و السماء ساح مجزرة
جنانها المعلقات زرعها الرؤوس
تجرها قواطع الفؤوس
و تنقر الغربان من عيونها
و تغرب الشموس
وراء شعرها الخصيب في غصونها[3]

وتتحول صورة بابل إلى بغداد المعاصرة، وهو استحضار يكشف عن معنى مضاد للتطور؛ لأن إحساس الشاعر يدفعه إلى رغبة تدميرية لمعنى المدينة،

(1) السياب، الأعمال الشعرية الكاملة، ص340.
(2) صبري حافظ، الرحيل إلى مدن الحلم، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1973، ص 13.
(3) السياب، الأعمال الشعرية الكاملة، ص252.

لذلك يأتي بأبشع الصور عنها، وهذا يعود إلى موقف السياب السياسي بعد ثورة تموز 1958م[1]

إن استدعاء صورة بابل القديمة واسقاط دلالتها السلبية على بغداد يظهر مدى القهر السياسي والاجتماعي الذي حمله السياب ضد بغداد"السلطة" فبابل تبدو صورة كاملة للدمار ومسورة وفيها القباب والمقبرة،الجنائن،العيون، الشموس، فالاماكن كلها مرتفعة ما عدا المقبرة، وهذا يفصح عن تناقضات لكنها متوحدة في الحالة التدميرية[2] وتبدو بابل محاطة بهالة أسطورية عاد بها السياب إلى واقعها القديم،إذ يقول:

سيان والحياة كالفناء
سيان جنكير و كنغاي
هابيل قابيل و بابل كشنغهاي[3]

يجمع السياب في هذا المقطع عددا من الأساطير، هيروشيما من خلال عيني طبيب البعثة اليسوعية، وكونغاي من خلال الفتاة الصينية التي ألقت بنفسها داخل وعاء لصهر المعادن، وقد امتزج دمها كي يتلاءم مع الخلائط لتصنع الفانوس. وبابل القديمة ذات الجنائن المعلقة...يستوحي السياب من خلال هذه الأساطير صورة بابل المريضة المصابة بالدمار وهذا تاريخ عام قد أصيب بالمرض، وهذا مرتبط بالخطايا الأولى لقابيل وهابيل وتبد المتناقضات على النحو الآتي:

الحياة فناء
جنكيز كونغاي
هابيل قابيل
بابل شنغهاي

فقابيل هو الذي ارتكب أول جريمة على وجه الكرة الأرضية، وجنكيز هو السفاح المشهور..إن مجموعة هذه المتناقضات التي جمعها السياب في نصه الشعري يفصح عن القوة التدميرية لهذه المدينة. وتبد و بابل في قصيدة سربروس في بابل رمزا لبغداد، والشاعر يتخذ من أسطورة (سربروس) قلب الجحيم في الأسطورة الاغريقية رمزا لعبدالكريم قاسم، وما بابل إلا بغداد مركز القيادة

(1) ياسين النصير، جماليات المكان في شعر السياب، سابق، ص69.
(2) ياسين النصير، جماليات المكان في شعر السياب، سابق، ص69.
(3) السياب، الأعمال الشعرية الكاملة، ص199.

السياسية التي يحكم منها قاسم، وتبد بابل حزينة مهدمة، وسربروس يعوي في دروبها، ويقوم بتمزيق الصغار بعد أن عاث فيها فسادا:

ليعو سربروس في الدروب
في بابل الحزينة المهدمة
و يملأ الفضاء زمزمه
يمزق الصغار بالنيوب يقضم العظام
و يشرب القلوب[1]

وعلى الرغم من طغيان الصورة السوداوية لبابل إلا أن هناك ومضات متفائلة بأن تغسل من خطاياها ويولد الضياء من دماء ابنائها؛ فسور بابل المهدم سوف ينهض من جديد بصورة متفائلة بدلا من بابل القديمة المهدمة، ودماء الآلهة والصبية الصغار قد أخصبت الأرض والحبوب قد نبتت، والأشرعة بعد أن كانت ممزقة مبعثرة قد جمعت..وهذه صورة مإيجابية لبابل الجديدة..بغداد..العراق:

ليعو سربروس في الدروب
لينهش الألهة الحزينة الألهة المروّعة
فإن من دمائها ستخضب الحبوب
سينبت الإله فالشرائح الموزّعة
تجمعت تململت سيولد الضياء
من رحم ينزّ بالدماء[2]

بعد أن كانت بابل تمثل الوجه المظلم من حياة الأمة..تأتي صورة الإشراق الذي سينجم عن بابل بالنماء ضد الدمار والخراب، والأرض أصبحت الرميم الذي يتجمع فيه الخصب والنماء والسماء المضيئة بالأرض، وهذا إعادة خلق وتكوين للأسطورة تموز التي تفيد النماء والخضرة بعد الدمار إلا أن هذا الأمل ما زال تحت عيني (سربروس).

و أبرقت السماء كأن زنبقة من النار
تفتح فوق بابل نفسها و أضاء وادينا
و غلغل في قرارة أرضنا
وهج فعرّاها
بكل بذورها وجذورها وبكل موتاها
.....
لنعلم أن بابل سوف تغسل من خطاياها[3]

---

(1) السياب، الأعمال الشعرية الكاملة، ص258.
(2) السياب، الأعمال الشعرية الكاملة، ص259.
(3) السياب، الأعمال الشعرية الكاملة، ص262.

يتحرك السياب عبر نسيج النص الشعري إلى مدينة جديدة، مدينة تحمل معها كل معاني النمو والتطور، ويبدأ من (السماء/ النار/ الوادي/ الأرض/البذور/ الجذور/...وهذه دلالة النمو والتطور الذي يراه السياب لبابل الجديدة، وكأنها بذلك المدينة الفاضلة وليست بغداد دون أن يشير إلى موقف سياسي...ويتداخل الزمن الماضي والحاضر ما بين (أبرقت) وختام المقطع بـ(تغسل) وهذا اتحاد ما بين السماء ومادية الأرض، إذن هي بابل المطهرة والموعودة ببريق السماء الذي يغسل أرضها الخاطئة[1].

(1) ياسين النصير، جماليات المكان في شعر السياب، سابق، ص172 .

صحا من نومه الطينيّ تحت عرائش العنب
صحا تموز عاد لبابل الخضراء يرعاها
و توشك أن تدق طبول بابل ثم يغشاها
صفير الريح في أبراجها و أنين مرضاها[1]

لقد صحا تكوز وعاد لبابل الخضراء يرعاها ويمنحها الخير والعطاء..لكن وميض الأمل لا يكتمل، فما زالت بابل مليئة بالحزن دائمة المرض...والريح الذي يحمل دلالة سوداوية يصفر في أبراجها، وينذر باليأس والاحباط، وفقدان الأمل في بغداد يصدر أنينا من شدة المرض.

إن توظيف الرمز المكاني التراثي لبابل يكشف عن حال الأمة؛ فهي في حالة موت وتخلف..وإن بعثها يعني بعث الأمة من جديد..فبابل التي كانت رمزا للحضارة والتطور في القدم فهي اليوم في حالة الفناء وان بعثها سيبعث الأمة من جديد. ومن ذلك يتبين أن السياب ربط بابل بهالة أسطورية ليكشف من خلالها عالم المتناقضات التي وجدت في العصر الحديث في مدينته بغداد/ رمز السلطة. والسياب لا يقف موقف لاالنقيض من بابل لذاتها وبنائها وإنما يقف على حال الأمة وما وصلت إليه.

وقد بدأت النظرة سوداوية قاتمة وذلك لإحساس الشاعر باليأس من حال الأمة وبعثها، والشعور بالقهر والإحباط والقهر السياسي والنفسي والاجتماعي ولهذا كله جاءت صورة معبرة عن تجربة الشاعر والأمة في ذلك الوقت.

- **جيكور**

تعد جيكور من قرى الهلال الخصيب الواقعة في جنوبي العراق، وهي البلدة التي نشأ فيها السياب وترعرع، وقد تغنى فيها السياب كثيرا حتى أنه لم يترك شيئا من جيكور إلا وتحدث عنه[2]، وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على عشق الشاعر لوطنه، وقد أصبح حديث السياب عن جيكور، حديثه عن ذاته، فقد كانت ملاذه عندما تشتد أزمته؛ فيعود إليها بجسمه وخياله طالبا الأنس فهي الخلاص وباب الميلاد[3]، ويرى في جيكور عالم من البراءة والحنان ينسيه جهامة المدينة وضيقها.

وصور السياب جيكور بأنها مدينة المحبة والبراءة والصدق وهي بالنسبة إليه رمز الخصب والتفجر والبكارة الدائمة، وعالم الصفاء، ومظهر ينقذه من

---

(1) السياب، الأعمال الشعرية الكاملة، ص260.

(2) انظر قصائد السياب في جيكور منها: جيكور أمي، أفياء جيكور، مدينة جيكو، جيكور واشجار المدينة، جيكور شابت...

(3) مناف منصور، تجربة المدينة عند السياب، قضايا عربية، السنة الأولى، ع 7،1974،ص 93.

وساوسه[1]، وهي العش الأمين الذي يهرع إليه حين تتأزم الحياة ففيها ترقد والدته. يقول في قصيدة أفياء جيكور:

نافورة من ظلال من أزاهير
و من عصافير
جيكور جيكور يا حقلا من النور
يا جدولا من فراشات نطاردها
في الليل في عالم الأحلام و القمر
ينشرن أجنحة أندى من المطر
في أول الصيف[2]

يرسم السياب صورة جميلة تتجاوز الواقع لتصل إلى الخصب الروحي لتسمو بها النفس، حيث يجعل من جيكور حقلا من النور، وعندما يقسو السياب عليه المرض تمتد يده إلى جيكور ملتمسا الشفاء منها، حيث تظهر بصورة " الأم الحانية التي تحتضنه وتشفيه من دائه ومرضه الوبيل، تحنو عليه حتى يشفى من وجعه المؤلم"[3]

جيكور مسّي جبيني فهو ملتهب
مسّيه بالسّعف
و السنبل الترف
مديّ علي الظلال السمر تنسحب
ليلاً فتخفي هجيري في حناياها[4]

ويرى أن جيكور هي التي تلم عظامه بعد دفنه، وهي التي ستنفض عنه كفن الموت حين يضمه، وتخلده بدلا من أن تفنيه، وسوف تغسل قلبه بجدولها بعد أن كان نارا لتريحه من عذاب سني العمر المتعبة.

وتعد جيكور محل هداية له، فلولاها ما عرف وجه الله، وتظل جيكور عبارة عن نبع يسيل في ذهن السياب يحلق به إلى دنيا الأحلام، وحتى الموت في جيكور موت بعث لا موت انتهاء، ولا يستقبله بخوف أو حزن:

جيكور لمي عظامي و انفضي كفني
من طينه و اغسلي بالجدول الجاري
قلبي الذي كان شباكا على النار
لولاك يا وطني

---

(1) مناف منصور، تجربة المدينة عند السياب، ص 93.
(2) السياب، الأعمال الشعرية الكاملة، ص120.
(3) قيس كاظم الجنابي، مواقف في شعر السياب،ص 133.
(4) السياب، الأعمال الشعرية الكاملة، ص121.

لولاك يا جنتي الخضراء يا داري
لم تلق أوتاري
ريحا فتنقل آهاتي و أشعاري
لولاك ما كان وجه الله من قدري
أفياء جيكور نبع سال في بالي
أبلّ منها صدى روحي
في ظلّها أشتهي اللقيا و أحلم بالأسفار و الرّيح
و البحر تقدح أحداق الكواسج في صخابه العالي
كأنها كسر من أنجم سقطت
كأنها سرج الموتى تقلبها أيدي العرائس من حال
إلى حال[1]

تتساوى صورة جيكور وصورة الأم في ذهن السياب، فكلاهما نبع للحب والحنان والعطاء والإلهام، وقد امتزجت هذه الصورة منذ أن كان السياب طفلا صغيرا.

أفياء جيكور أهواها
كأنها انسرحت من قبرها البالي
من قبر أمي التي صارت أضالعها التعبى و عيناها
من أرض جيكور ترعاني و أرعاها[2].

وفي تطور الدلالة الرمزية لجيكور، يربط السياب صورة جيكور والمدينة، حيث يقول:

وتلتف حولي دروبُ المدينة
حبالا من الطين يمضُغْن قلبي، ويُعْطِين عن جَمْرةٍ فيه طينة
حبالا من النار يَجْلِدْن عري الحقولِ الحزينة
ويَحْرِقْنَ جَيْكُورَ في قاع روحي، ويزرعْنَ فيها رماد الضَّغينة
دروبٌ تقول الأساطيرُ عَنْها
على موقدٍ نام: ما عاد منها
ولا عاد من ضفَّة الموتِ سارِ
كأن الصَّدى والسَّكينة
جناحاَ أبي الهولِ فيها، جناحان من صخرة في ثراها دفينة
فمن يَفجُرُ الماء منها عيونا لتُبْني قُرانا عليها؟
ومن يُرْجِعُ الله يوما إليها؟[1]

---

(1) السياب، الأعمال الشعرية الكاملة، ص122.
(2) السياب، الأعمال الشعرية الكاملة، ص123.

هذه مقابلة يجريها السياب بين المدينة (بغداد) والقرية(جيكور) حيث يخرج السياب هذه الأمكنة من دلالتها الحقيقية إلى رمز بين متصارعين، تبدأ القصيدة بتصوير رائع لدروب المدينة/ الجبال الطينية، إنها جبال المشنقة التي تلتف حول روحه،وبصورة قاسية عندما يقول (يمضغن قلبي) دلالة التعذيب والقسوة والمرارة وكأنها روح أفعى لكنها لا تبتلع بل تمضغ.

وتتحول جبال الطين إلى نار تجلد عرى الحقول الحزينة، وتمتد من المدينة إلى القرية جيكور لتحرقها؛ فتكون بذلك رمز الدمار والتلاشي وموت الحياة؛ فهي بذلك تزرع زرعا جديدا هو (الضغينة) وتظل متجددة؛ لأنها ميراث المدينة ودروبها[2]. ودروب المدينة تتحول إلى أسطورة في قوتها المدمرة" إن من سار فيها لا يعود" وهذه حقيقة المدينة التي عرفها السياب/الإنسان الفقير الذي فتح عينيه في وسط الصراعات الفكرية والمادية. وتظل جيكور الفردوس الأعلى، صاحبة القلوب النظيفة والتي ستخلص بابل من الآثام.

وبهذا تخرج جيكور من المدلول الحقيقي لقرية الشاعر إلى مدلول رمزي خالص، يفيض بايحاءات الطهر والبراءة والسكينة والروحانية حتى وهي محاصرة سجينة، وتظل الملاذ الحقيقي الحاني الفياض بالرحمة التي يلوذ به الشاعر من هجير المدينة وقسوتها[3]

وفي قصيدة (العودة لجيكور) استمد السياب صور من الغربة الروحية التي عاشها في المدينة، وما فيها من علاقات مادية بحتة تلغي العلاقات الإنسانية والمعنوية بين أهلها:

على جواد الحلم الأشهب
أسريت عبر التلال
أهرب منها من ذراها الطوال
من سوقها المكتظ بالبائعين
من صبحها المتعب
من ليلها النابح و العابرين
من نورها الغيهب
من ربها المغسول بالخمر
.....
أبحث في الآفاق عن كوكب
أواه يا جيكور لو تسمعين

---

(1) السياب، الأعمال الشعرية الكاملة، ص225.

(2) أحمد عودة الله الشقيرات، الاغتراب في شعر السياب، دار عمار، عمان، 1987، ص 133.

(3) علي عشري زايد، قراءات في شعرنا المعاصر، ص 165.

أواه يا جيكور لو توجدين
لو تنجبين الروح لو تجهضين
كي يبصر الساري
نجما يضيء الليل للتائهين[1]

إن شعور السياب بالحياة المادية التي يعيشها أبناء المدينة جعله يشعر بابتعاده عن قيم الزيف وعاداته وتقاليده، وهذا بدوره يولد غربة روحية عن مجتمع يعيش فيه، فبدأ يبحث عن العلاقات المعنوية ليطفئ ضمنأ روحه، ولا يكون ذلك إلا بمنزل بعيد عن هذه المدينة التي استحالت فيها القيم الروحية الأصيلة فيما يراه ويشاهده ويشعر به، وحتى هذا البحث أصبح مستحيلا لأن الحياة المادية قد أقامت حواجزها عن قريته جيكور رمز الحياة الروحية الوديعة، ولا يوجد هناك من يضحي بنفسه من أجل هدم وتحطيم هذا السور الذي أحاط بالحياة الروحية الأصيلة.

جيكور من دونها قام سور
و بوابه
و احتوتها سكينة
فمن يخترق السور من يفتح الباب يدمي على كل قفل يمينه
و يمناي لا مخلب للصراع فأسعى بها في دروب المدينة
و لا قبضة لابتعاث الحياة من الطين
لكنها محض طينه
و جيكور من دونها قام السور
و بوابه
واحتوتها سكينة[2]

عامورة وسدوم

يستلهم السياب صورة(عامورة) مدينة سيدنا لوط عليه السلام وما كان فيها من الفساد وانعدام القيم الاخلاقية واندثارها. صورة جديدة يربط بينها وبين بغداد في العصر الحديث الذي يعيشه، إذ يجعل بغداد صورة ثانية لعامورة وما فيها من دلالات الشهوة العارمة والشبق الجنسي الذي لا يقدم البشرية؛ بل على العكس من ذلك فإنه رمز للخراب والدمار وانعدم للاخلاق.

أهذه بغداد
أم أن عامورة
عادت فكان المعاد

---

(1) السياب، الأعمال الشعرية الكاملة، ص228.
(2) السياب، الأعمال الشعرية الكاملة، ص227.

موتا..... [1]

لا يستدعي السياب هذا المكان التراثي لذاته؛ بل لما يرمز إليه من قيم وأخلاق فاسدة، يرفضها ويرفض كل المدن التي تقوم على مثل هذه الشاكلة حتى وان كانت بغداد.. ويضع السياب المتلقي في دهشة ليظهر المفارقة في المكان والتشابه لما يحل به من قيم فاسدة كعامورة، ولما صبغت بغداد بهذه الصفة الأخلاقية الفاسدة" فإن داءها هو الذي حل بالسياب، وجعله شبيها بزوجة لوط (عليه السلام) التي قادها تطفلها إلى تحمل العذاب عقابا"[2]

كيف أمشي خطاي مزقها الداء كأني عمود
ملح يسير
أهي عامورة الغوية أو سادوم
هيهات إنها جيكور
جنة كان الصبي فيها و ضاعت حين ضاعا [3]

لقد أصبح المشي مستحيلا، فهو كعمود ملح مثل زوجة لوط عليه السلام عندما نظرت إلى عذاب أهل مدينة لوط...يعش الحدث ذاته ثم ينتقل إلى الواقع فيقول:

هيهات...إنها جيكور

وقد استطاع السياب بهذا التوظيف ربط الماضي التراثي لمدينة لوط(عامورة) بواقع بغداد؛ فأسقط من الماضي الدلالات الأخلاقية والمعنوية على بغداد الحاضرة، وقد أسعفه هذا الرمز في رسم ملامح بغداد في الجانب السلبي كما يراه السياب.

إرم ذات العماد

إرم هي المدينة العجيبة التي بناها شداد بن عاد، وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم، في قوله تعالى: ﴿ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ ۝٩ ﴾ **(سورة الفجر 8-9).**

ويوظف السياب هذا الرمز المكاني التراثي مستخدما أسلوب الحكاية، وصوت الراوي العائد إلى الماضي وتكنيك توظيف الرمز التراثي، وتبدو صورة إرم في الشعر الحديث في البحث عن المدينة الغائبة أو الحلم[4] فالراوي كان مقامرا مع الزمان وصيادا في الرميلة ومنصتا لبوح المحار والحصى وللقفاز بمواطن

(1) السياب، الأعمال الشعرية الكاملة، ص243.
(2) أنس داود، الأسطورة في شعر السياب، سابق،ص 63.
(3) السياب، الأعمال الشعرية الكاملة، ص340.
(4) خالد الكركي، الرموز التراثية في الشعر العربي الحديث، دار الجيل، ط1، ص 29.

اللؤلؤة. ذكرته نجمة وحيدة بنجمته البعيدة، ويحقق السياب تداخلا بين إرم ورمزا آخر هو عنترة، ورمز عنترة هنا جزئيا يحقق مدلولا مرتبطا بالرمز الأصلي، وهذا المدلول هو صورة الباحث.

عنترة الذي يقف عند أسوار من يحب "عبلة" فيصبح النص رمزا مركبا عنترة الباحث عن عبلة، والشاعر /السياب الباحث عن إرم[1] المدينة الغائبة أو الحلم بالنسبة إليه، وهذه المدينة غائبة منذ زمن طويل، وهو ينتظر ظهورها.

لقدوقف الشيخ الراوي على بوابة رهيبة مغلقة، يدق بابها القادم فلا يرجع منها إلا عفن الزمان والعوالم العجيبة:

وقفت عندها أدق
يا صدى أراجع
أنت من المقابر الغريبه
أحس في الصدى
برودة الردى
أشم فيه غفن الزمان والعوالم العجيبه
من ارم وعاد[2]

لقد وقف الراوي كثيرا عند بابها؛ لكنه لم يدخل إليها، وقد مرت الأعوام حتى أصبح ذليلا عند بابها:

جلست عند بابها كسائل ذليل
جلست أسمع الصدى كأنه العويل
يلهث خلف حائط من حجر ثقيل
كان بين دقة ودقة يمر ألف عام[3]

إن عمر الراوي /الشيخ قد انقضى لذا لن يراها ثانية إلا في عيون الصغار فيمن يروي لهم حكايتها، والسياب هنا يكشف عن فشل مؤكد لمرحلة أو لجيل في الوصول؛ لكنه لا يصل إلى حد اليأس، بل ينقله إلى وهج الطفولة[4]، يقول على لسان الشيخ:

ولن أراها بعد ان عمري انقضى
وليس يرجع الزمان ما مضى
سوف أراها فيكم فأنتم الأريج
بعد ذبول زهرتي فان رأى ارم
واحدكم فليطرق الباب ولا ينم

---

(1) خالد الكركي، الرموز التراثية في الشعر العربي الحديث،، ص 30.
(2) السياب، الأعمال الشعرية الكاملة، ص317.
(3) السياب، الأعمال الشعرية الكاملة، ص317.
(4) خالد الكركي، الرموز التراثية في الشعر العربي الحديث،، ص 30.

ارم[1]

لقد ضاع عمر أو جيل بغير وصول، فهل كان جيل مرحلة شعب آنذاك؟ أم أن عمر الشاعر /السياب هو الذي ضاع؟ علما بأن القصيدة مؤرخة سنة 1963م.

إن عمر السياب هو الذي ضاع دون أن يحقق شيئا من أهدافه وآماله لذلك يعاني من الألم لأن عمره انقضى، وأن عقارب الساعة لن تعود إلى الوراء، وهنا يؤكد السياب ضرورة الانتباه للزمن وعدم تركه يمر دون الإفادة منه فستحالت إرم إلى المدينة/الحلم[2] عندما جلس الجد عندبابها كسائل ذليل وكأنه السندباد. ويحس السياب باللوعة والتحسر ففي هذه الفترة الزمنية حيث اشتد عليه المرض الذي أنهك قواه وأهلكه..فإذا كانت جنة شداد بن عاد قد ذهبت وأصبح مصيرها الفناء فإن عمر السياب قد شارف على الانتهاء والفناء:

حلم صباي ضاع آه ضاع حين تم
وعمري انقضى
وهران

يستدعي السياب وهران المدينة الجزائرية التي انطلقت منها الثورة الجزائرية ضد الاستعمار الفرنسي، وقد كانت نقطة تحول في التاريخ الجزائري الحديث. ويستدعي السياب هذا المكان في شعره ليسقط دلالات وهران الثورية ضد الظلم والطغيان على بغداد القابعة في الظلم والمستسلمة لقدرها لعلها تقوم هي الأخرى بثورة كتلك التي قامت في الجزائر.

بشراك يا أجداث حان النشور
بشراك في وهران أصداء صور
سيزيف ألقى عنه عبء الدّهور
و استقبل الشمس على الأطلس
آه لوهران التي لا تثور[3]

يوظف السياب ملمح الثورة ورفض الظلم والاضطهاد سواء من المستعمر أو من السلطة الحاكمة من خلال الرمز التراثي (وهران) التي عرفت بذلك، وقد اعتمد الشاعر على التلميح والايحاء دون أن يذكر بغداد صراحة، والقصيدة في مجملها تمثل معاناة الإنسان العربي من الظلم والقهر والاستعمار الأجنبي.

- **غارحراء**

---

(1) السياب، الأعمال الشعرية الكاملة، ص317.
(2) علي عبد الرضا، الأسطورة في شعر السياب، ص 78.
(3) السياب، الأعمال الشعرية الكاملة، ص215.

من الرموز التراثية ذات الطابع الديني غار حراء وهو المكان الذي اختفى فيه رسول الله عليه السلام عن أعين الكفار المشركين أثناء مطاردتهم له، ويستدعي السياب هذا الرمز التراثي في الديانة الاسلامية كمكان وجده الرسول عليه السلام آمنا وطريقا لهروبه من المشركين، يقول:

هذا حرائي حاكت العنكبوت
خيطا إلى بابه
يهدي إلي الناس إني أموت[1]

لقد قلب السياب الدلالة في توظيفه للرمز التراثي، فإذا كان غار حراء وخيوط العنكبوت التي امتدت أمام الغار كانت وسيلة تضليل للكفار والمشركين ومنعهم من الوصول إلى الرسول عليه السلام " فإن السياب قد عكس هذه الدلالة فالعلاقة ما بين الغار والعنكبوت قد تحولت إلى الضد؛ أي فضح مكمن المختبئ وهدى الناس إليه وكأن السياب أراد أن يقول لنا إنه حتى المعجزة لم تعد نافعة إزاء واقع جديد يعبث فيه الآخرون/حاملوا البنادق/عن الشاعر"[2]

وهكذا جاءت صورة الموروث المكاني من الصور القديمة إلى ضبط في النسيج المأساوي العام، وتكشف بضوئها / حالة الشاعر المعاصر شيئا من واقعه المأزوم[3] فمن خلال استخدام رمز مكاني معروف في التراث الديني بدلالاته المختلفة، وقد وفق الشاعر في استخدام دلالة هذا الرمز مابين ما كانت عليه وما آلت إليه لبيان المفارقة بين الماضي والحاضر.

- **المئذنة**

المئذنة في الإسلام رمز لمكان العبادة، ويستدل به الناس إلى بيت الله، وهي تقوم عالية في سماء المسجد. والأمكنة في النصوص الشعرية لا تمثل ذاتها كمادة مطروحة على الأرض، إنما تمثل وعي الإنسان المعاصر بحقيقته، وقد تجسدت هذه الحقيقة عبر تاريخية المكان[4] وقد وظف السياب أمكنة تراثية " اكتسبت هذه الأمكنة بالثوب العربي الخالص وحملت الروح المحلية المشبعة بتاريخيتها دون أن تنعزل عن العالم..والسياب في تعامله مع أمكنة كهذه يبتعد عن العاطفة؛ لأنه يفصح عن موقف إنساني كبير؛فيكشف عن التزام أخلاقي بحقائق العصر المهمة.

قرأت اسمي على صخرة
هنا في وحشة الصحراء

---

(1) السياب، الأعمال الشعرية الكاملة، ص230.
(2) محسن أطميش، دير الملاك، ص 235.
(3) محسن أطميش، دير الملاك، ص 235.
(4) ياسين النصير، جماليات المكان في شعر السياب، ص 128.

على آجرّة حمراء
على قبر فكيف يحس إنسان يرى قبره
يراه و إنه ليحار فيه
أحيّ هو أم ميت؟ فما يكفيه
أن يلقى له ظلا على الرمال
كمئذنة معفّرة
كمقبرة [1]

يستدعي السياب الرموز الدينية والعربية التي أساء إليها الغزاة ونالوا من قدسيتها ومكانتها، ويفاجأ عندما يبعث من قبره فلا يجد أمجاد الأمة العربية غير آجرة حمراء وصحراء موحشة، وهو لا يعلم بأنه حي أو ميت؛ فحياته تعني حياة الأمة وموته يعني موت الأمة وهذه الصورة مرتبطة بالمئذنة التي هي دلالة مقدسة ورمز لأمة الإسلام ولكنها تبدو معفرة؛ لا بل كقبر وهذا دلالة موتها وموت أمتها، كيف لا وهي التي تعكس معالم الإسلام والمسلمين الخالدة؟

كما يستدعي أيضا من أمجاد الأمة الخالدة (معركة ذي قار) يستعين بها على اغترابه في العصر الحاضر في مواجهة المستعمرين الذين نالوا من قدسية رموزنا الإسلامية والعربية وعاثوا فيها فسادا في المغرب العربي وسائر البلاد العربية[2] .

إله الكعبة الجبّار
تدرع أمس في ذي قار
بدرع من دم النعمان في حافاتها آثار

(1) السياب، الأعمال الشعرية الكاملة، ص215.
(2) انظر محمد راضي جعفر، الاغتراب في الشعر العراقي، مرحلة الرواد، 1999، ص 57.

إله محمد و إله آبائي من العرب[1]

ولا يقف السياب عند حدود معركة ذي قار التاريخية؛بل " بما تكتنفه هذه المادة من قيمة معنوية ودلالة إيحائية يريد ايصالها إلى ذهن المتلقي"[2] لذلك تأتي هذه المعركة بحالتين معاصرتين، حالة ثورة الغضب..ونهوض في بلد عربي وأخرى مضادة..حالة من البكاء والنزاع في بلد آخر ما زال يرضخ تحت نيل المستعمر، يقول:

تراءى في جبال الريف يحمل راية الثوّار
و في يافا رآه القوم يبكي في بقايا دار
و أبصرناه يهبط أرضنا يوما من السحب
جريحا كان في أحيائنا يمشي و يستجدي
فلم نضمد له جرحا... [3]

الصخرة والصحراء والمئذنة والمقبرة..هي المواقع الأكثر صلة بالروح الماضية، حيث ترسم المئذنة في مخيلة السياب حقيقة الماضي الممتد في العلو، وفي الأعماق مقبرة الحاضر لدى السياب..وينتهي إلى أن الغزاة يثأرون اليوم منا لماض كنا فيه سادة لهم [4] وتستلزم الدرامية استدعاء الشخصيات التراثية لممارسة الاسقاط السياسي والاجتماعي الذي تميز به أصحاب القصيدة.

- **المدن الأوروبية**

تنقل السياب في عدد من المدن الأوروبية طلبا للعلاج فزار لندن وباريس وروما، وقد ارتبطت صورة هذه المدن في ذهنه وكانت تحمل جميعا الدلالة السلبية وهذا ناتج عن مشكلة الصراع وبالقائم في ذهن السياب ما بين المدينة والقرية، فلندن " ارتبطت صورتها بالعطش الروحي والاحتكار والمصارف...ذلك أن السياب يريد عالما له لا دونه [5] وتبدو سماء لندن باللون الكابي، وحياتها صحراء مظلمة.يقول:

سمعت هتافه المجروح يعبر نحوي الشرفه
ليرفع من سماوة لندن الليل المطل بلونه الكابي
يريد الماء فيها ماء أين الماء و هي تريه أفواها
على آفاقها الربداء ظمآى تشرب الديجور
فلا تروى أأقصى العمر في صحراء في ليل من العطش
أفتش عن عيون الماء عن إشراقه الغبش

---

(1) السياب، الأعمال الشعرية الكاملة، ص217.
(2) علي حداد، أثر التراث في الشعر العراقي الحديث، ص80.
(3) السياب، الأعمال الشعرية الكاملة، ص217.
(4) محمد راضي جعفر، الاغتراب في الشعر العراقي، ص 57.
(5) مناف منصور، تجربة المدينة عند السياب، قضايا عربية، السنة الأولى، عدد 7 بيروت 1974م، ص 93.

بأن الله يرزق حين يرزق هكذا الدنيا
شتاء ثم صيف ليس في جيكور محتكر
و لا فيها مصارف أو جرائد [1]

كما تبدو ايضا بأنها من حديد وصخر لا حياة روحية فيها وليلها طويل وقاس لا تطلع الشمس عليه (مدينة الضباب) حياة مليئة بالجمود والملل:

و في الصباح يا مدينة الضباب
و الشمس أمنيّة مصدور تدير رأسها الثقيل
من خلل السحاب
ما أطول الليل و أقسى مدية السّهر
و مدية النوم بلا قمر [2]

وتبدو صورة باريس رمزا للانحراف الاجتماعي والفساد الأخلاقي فهي مكان للجريمة، تفيض شوارعها بالسكارى والضائعين الحيارى والغرباء، وتقوم الحانات على جوانبها فليس في ليلها غير البغايا الشقر والمتسولين والفكر المهان[3].

وذهبت فأنسحب الضيـــــاءُ
أحسستُ بالليل الشتائي الحزين وبالبكاء
ينثالُ كشلال من افق تحطه الغيوم
أحسست وخز الليل في باريس ، و اختنق الهواء
بالقهقهات من البغايا.. اه ! ترتعش النجوم
منها كبلور الثريات الملطخ بالدماء[4]

هكذا تبدو صورة باريس شتاؤها حزين وهواؤها قاتل ليس هناك صوت إلا صوت البغايا يقهقهن في الشوارع والحانات وهذه صورة المدينة الأوروبية كما وردت عند السياب من خلال رحلاته إليها.

وقد ظهرت بالصورة السلبية ولم يكن فيها جوانب ايجابية، ولعل ذلك يعود إلى صراع الشاعر الذهني والعاطفي ما بين القرية والمدينة منذ أن دخل بغداد أول مرة، وكذلك صراع الشاعر مع الداء الذي أرهقه وأهلكه؛ فلم يكن لدى الشاعر أي مجال للتعرف على الجوانب المضيئة لهذه المدن، ولأن نفس الشاعر تتوق إلى البساطة والعلاقات الاجتماعية الحميمة كما هي في القرية وقد تربى

---

(1) السياب، الأعمال الشعرية الكاملة، ص222.
(2) السياب، الأعمال الشعرية الكاملة، ص171.
(3) مناف منصور، تجربة المدينة عند السياب، قضايا عربية، السنة الأولى، عدد 7 بيروت 1974م، ص 93.
(4) السياب، الأعمال الشعرية الكاملة، ص324.

شاعرنا عليها، كل ذلك جعل السياب يقف من المدن الأوروبية والعربية موقف العداوة من هذه المدن.